بدر شاكر السيّاب

ثورة الشعر.... ومرارة الموت

في قرية صغيرة تدعى جَيْكور على الفرات، قرب مدينة البصرة جنوب العراق، ولد بدر شاكر السيّاب. وكان أبوه يعمل بزراعة النخيل وبيع التمر. وقد عاش بدر السنوات الأولى من طفولته سعيداً يتمتع باللهو والمرح البريء مع أترابه، إلى أن حصلت حادثة مفجعة كان لها أكبر الأثر عليه طوال حياته القصيرة.

ففي عام / ١٩٣٢م / والشاعر ما زال في السادسة من عمره، أسلمت والدته الروح وهي تضع مولوداً وخلّفت بدراً وأخوين يصغرانه سناً، ففقد ينبوع الحنان وتزوج أبوه، فابتعد عنه. ويبدو أن هذه الحالة الجديدة قد زادت من عمق آلامه، وأيقظت شجونه. وفي قصيدة بعنوان (خيالك) يقول:

خيالـــك مـــن أهلـــيَ الأقـــربين

أبـــي منـــهُ قـــد جـــرْدَتْني النـــساء

أبـــــرُّ وإنْ كـــــان لا يعقِـــــلُ

وأمـــي طواهـــا الـــردى المُعْجِـــلُ

وتلاحق شاعرنا طيور الشؤم، وتتوفى جدته لأبيه التي كانت تعطف عليه وترعاه وتسهر على راحته، فصدمه موتها صدمةً عنيفةً فرثاها قائلاً: «جدّتي هي كلُّ ما خلَّف الدهر من الحب والمنى والظنون. قد فقدتُ الأُمَّ الحنون فأنستني مصابَ

الأم الرؤوم الحنون». ويوجه حديثه إلى قبرها الذي احتضنها، ويرجوه أن يبقى على عنايته بها كما كانت ترعاه يتيماً:

أيهـــا القـــبرُ، كـــن عليهـــا رحيمـــاً

مثلمـــــا ربّـــــت اليتـــــامى بلـــــينِ

وقد كان موت أمه، وجدته، وزواج والده الثاني، أول وشاح أسود قاتم اللون يغشي عينيه، ويمحو أشياء لا يستهان بها من سعادته وأفراح قلبه.

ويتنقل بين جيكور وأبي الخصيب والبصرة، لاستكمال تعليمه وتحصيله الدراسي، ويلتحق بدار المعلمين في بغداد في مطلع العام الدراسي / ١٩٤٣ – ١٩٤٤ / حيث درس في قسم الأدب العربي في العامين الأولين، وانتقل إلى قسم الأدب الإنكليزي في العام الثالث. وفي نهاية السنة الخامسة عام / ١٩٤٩ م /، تخرّج في دار المعلمين بشهادة عالية في اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي.

تميزت حياة السيّاب بالشقاء والقهر وعدم الاستقرار، على الصعيدين الشخصي والسياسي. فبالإضافة إلى يتمه، كما أسلفنا، نشأ بدر يلازمه شعور بأنَّه دميم المنظر، نحيل الجسم وقصير القامة، لا يسترعي انتباه وإعجاب الفتيات الحسان تجاهه، لذلك تزوج زواجاً تقليدياً بفتاة من قريته ذات تعليم متوسط، اسمها إقبال طه عبد الجليل، وكانت ثمرة هذا الزواج ثلاثة أولاد.

وفي حياته العملية تقلب السيّاب في وظائف متعددة، بسبب الفصل من العمل الذي تعرض له أكثر من مرة لمواقفه السياسية الجريئة ونشاطه الحزبي.

أصبح بدر شاكر السيّاب في أوئل الأربعينيات من القرن الماضي ـ عضواً في الحزب الشيوعي العراقي. متى أصبح شيوعياً ؟ ليس معروفاً حتّى الآن بالضبط. إنّه يؤكد أنَّه أصبح شيوعياً، هو وعمه الأصغر عبد المجيد عن طريق شخص إيراني، ولكنه لا يذكر متى، وهو يؤكد أنَّه خلال الحرب العالمية الثانية كان يقوم بالدعاية للشيوعية. وقد اتصلت ـ والكلام للأستاذ ناجي علوش ـ بالسيد محمد الزرقا أحد زملائه في الجامعة، فذكر لي أن بدراً كان عضواً مؤازراً للحزب، من

السنة الأولى لدخوله الجامعة، وأنه ظل كذلك حتّى ترك الأستاذ الزرقا بغداد سنة / ١٩٤٥ م /. ويذكر الأستاذ الزرقا أيضاً أن بدراً كان من جماعة القاعدة، أي حزب القائد الشيوعي العراقي فهد، وأنَّه كان حتّى آنذاك يخلط بين الوعي والرفض. وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه بدر نفسه.

ويروي الأستاذ الزرقا أن بدراً انتسب للحزب الشيوعي عام / ١٩٤٥ م / ولقد بقي شاعرنا في الحزب الشيوعي مدة /٨/ سنوات. ليترك الحزب الشيوعي في زمن الزعيم عبد الكريم قاسم حين حدث الصدام الدموي الرهيب بين (الشيوعيين) و(القوميين العرب) في العراق، فوقف السيّاب ضد الشيوعيين، وانضم إلى الاتجاه القومي، فأنتج قصائد قومية عديدة نذكر منها « المغرب العربي » و « المومس العمياء » و « أنشودة المطر ».

ولقد كلفت بدراً هذه التجربة كثيراً، إذْ إنَّه اضطهد وشرّد، ولكنها أفادته كثيراً، إذْ حولت إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة مؤقتاً. كان الموت، فيما مضى، موته وموت أمه فقط، أما الآن فقد أصبح الموت عامة موت الآخرين، وكان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده، أما الآن فقد أصبح يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين. أدرك في هذه المرحلة بأن فاجعته ليست فاجعته الخاصة بل فاجعة شعبه، على حدّ تعبير الأديب الناقد ناجي علوش.

وفي هذا الصدد... أتهم السيَّاب بالتقلب السياسي، والحقيقة أن السيّاب كان مثالياً عاطفياً، وكان يصدم بالواقع عندما يصل إلى مرحلة التطبيق العملي.

وفي مرضه، والجوع يرهق أسرته، والألم يتطلب الدواء الباهظ، لم يجد حوله معيناً، فطرق أبواب المسؤولين في العراق ليساعدوه، فما كان منهم إلاَّ أن ساوموه على قصيدة يمدح بها الزعيم مقابل المساعدة المرجوة. وفعل ما طلبوا، فحصل على مبلغ ضئيل، وأعاد الكرة، فقد كان يهون أمام تهديد الموت له إي التزام. ومع ذلك، كان موقفه من انهيار حكم قاسم في ١٤ رمضان (٨ شباط ١٩٦٣ م) موقفاً صحيحاً سجله في قصيدته (إلى العراق الثائر...):

يا للعراق

يا للعراق أكاد ألمح عبر زاخرة البحار

في كل منعطف ودرب أو طريق أو زقاق

عبر الموانئ والدروب

فيه الوجوه الضاحكات تقول: قد هرب التتار

والله عاد إلى الجامع بعد أن طلع النهار.

* * *

هرع الطبيب إليَّ وهو يقول: ماذا في العراق

الجيش ثار ومات قاسم، أيٌّ بشرى بالشفاء

ولكدت من فرحي أقوم أسير أعدو دون دواء

مرحى له أي انطلاق

مرحى لجيش الأمة العربية انتزع الوثاق

يا أخوتي بالله بالدم بالعروبة بالرجاء

هبوا فقد صرع الطغاة وبدد الليل الضياء

obeikandl.com

ولقد أخذ عليه أيضاً قصيدة في مدح شيخ الكويت، يرجوه فيها أن يرسله للعلاج في الخارج على أمل الشفاء. وفيما عدا هذا فإن موقف بدر شاكر السيّاب كان موقف القوميين العرب ـ الاشتراكيين.

وبعد، فقد استطاع الشاعر أن يضيء جوانب حياة طبقة خاصة من الشعب العراقي، هي طبقة الفلاحين، التي ترعرع بينها، وظل مشدوداً إليها، فاستطاع أن يصور خيبتها في الحب، وحرارة حنينها عندما تهجر الريف إلى المدينة، وإخفاقها في العمل السياسي، وهي تحمل مثاليتها في حب الأرض وحب الوطن، الحب المخلص الذي يري الخير كل الخير لهذا الوطن، والذي يريد السلام للعالم، العالم الذي يتمنى أن يعيش دون خوف أو جوع أو فقر أو مذلة، إلى عالم لم يعد فيه عبدٌ وسيدٌ:

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب،

تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف

جوفاء... في بطء تذوب،

واستيقظ الموتى... هناك على التلال، على التلال

الريح تعول في الحقول. وينصتون إلى الحفيف

يتطلعون إلى الهلال

في آخر الليل الثقيل.. ويرجعون إلى القبور يتساءلون متى النشور !!

والآن تقرع في المدينة ساعة البرج الوحيد.

لكنني في القرية الظلماء... في الغاب البعيد.

ومن هذه النواحي ارتفع السيَّاب بشعره إلى مرتبة الشعراء العظماء الذين ارتقوا بشعرهم إلى مصاف البقاء، على حد تعبير الأديبة الناقدة نبيلة الرزاز اللجمي.

كان شعر السيَّاب نقطة تحول أساسية في الشعر العربي الحديث، إذْ استطاع أن يصل بالقصيدة العربية إلى آفاق الحداثة والمعاصرة، ومراعاة المحافظة على الأصالة بالارتباط بالتراث، وفي الوقت نفسه، الانفتاح على الثقافات المعاصرة الأخرى للإفادة منها، والقدرة على صهر ذلك في تجربة خاصة فريدة وأصيلة ومعاصرة، وبذلك شكّل ظاهرة فريدة في شعرنا العربي الحديث.

كان بدر قد أصيب بمرض عضال لم يُمهله، إذْ أخذ يشكو من ضعف في ساقيه، فدخل المستشفى في بيروت، ثمّ ذهب إلى لندن وباريس، ولكن الطب عجز عن شفائه فعاد إلى الكويت حيث دخل المستشفى الأميري المجاني، ولكنه فارق الحياة في ١٩٦٤/١٢/٢٤.

لقد شكّلت هذه السنوات الأخيرة بين عامي / ١٩٦٠- ١٩٦٤ / مأساة السيَّاب الصحية والاجتماعية، حيث عانى من الموت يحمله بين ضلوعه في المنافي، وليس لديه إلاّ صوته ومناجاته الشعرية ممزوجة بدم الرئة المصابة حتّى مات من جرّاء داء السل:

أسمعُهُ يبكي، يناديني

في ليليَ المستوحد القارس،

يدعو: « أبي كيف تخلّيني

وحدي بلا حارس » ؟

غيلان، لم أهجرْكَ عن قصدِ...

obeikandl.com

الداء يا غيلان أقصاني.

إنّي لأبكي، مثلما أنتَ تبكي، في الدجى وحدي

ويستثير الليلُ أحزاني.

فكلما مرّ نهارٌ وجاء

ليلٌ من البرد،

ألفيتُني أحسب ما ظلّ في جيبي من النقد:

أيشتري هذا القليل الشفاء ؟

دواوينه الشعرية:

١ ـ (أزهار ذابلة) صدر سنة ١٩٤٧.

٢ ـ (أساطير) صدر سنة ١٩٥٠.

٣ ـ (المومس العمياء) صدر سنة ١٩٥٤.

٤ ـ (الأسلحة والأطفال) صدر سنة ١٩٥٥.

٥ ـ (حفار القبور) صدر سنة ١٩٥٦.

٦ ـ (أنشودة المطر) صدر سنة ١٩٦٠.

٧ ـ (المعبد الغريق) صدر سنة ١٩٦٢.

٨ ـ (منزل الأقنان) صدر سنة ١٩٦٣.

٩ ـ (شناشيل ابنة الجلبي) صدر سنة ١٩٦٤.

١٠ ـ (إقبال) صدر سنة ١٩٦٥.

obeikandl.com

وفيما يلي ما وعته ذاكرة الدكتور محمود السمرة، عن زيارة بدر شاكر السيّاب إلى الكويت، من أجل تلقي العلاج الطبي المجاني:

« لا أذكر اليوم، ولكنه كان من أيام ربيع سنة ١٩٦٤ م، كنت في ذلك اليوم في مجلة (العربي) مع أستاذنا الراحل الدكتور أحمد زكي، وكنت يومئذ أنعم بظل وارف من نقاء إخوان الصفا والودّ في وزارة الإرشاد (وزارة الإعلام اليوم): بدر خالد البدر، وأحمد السقاف، وعبد الرزاق البصير (أبو عدنان) مدير مكتبة الوزارة.

قال لي أبو عدنان في ذلك اليوم: ما رأيك في أن نزور بدر شاكر السيّاب، فهو مريض يعالج في المستشفى الأميري. وعادت بي الذكريات إلى سنوات سابقة، إذْ ليست هذه أول مرة أسمع فيها أن بدر شاكر السيّاب يجيء إلى الكويت، ففي عام /١٩٥٢م/ استطاع بدر أن يصل إليها عن طريق إيران في سفينة شراعية قاعها من الطين، هارباً، متخفياً، على إثر ما عرف في تاريخ العراق الحديث باسم (انتفاضة تشرين). وفي الكويت كان يحيا مع العمال العراقيين في حالة بالغة من البؤس والضنك، حيث تتكدس الأعداد منهم في غرفة واحدة، وبينهم المريض والمسلول. وعلمت أنه كان يجلس بعد الظهر معهم في المقاهي التي يرتادونها. وذهبت إلى هذه المقاهي، وكان موقعها في (الصفاة) آنذاك كما أذكر، أتأمل في الوجوه باحثاً عنه، ولكنني لم أعثر عليه. وعدلت عن البحث، عندما بدأت عيون الجالسين فيها تنظر إليَّ بشك وارتياب.

وفي أثناء إقامته في الكويت التي امتدت إلى ستة أشهر، نظم رائعته (أنشودة المطر)، هكذا يقول بدر نفسه، وهي قصيدة حافلة بالأمل في التغيير، كما نظم فيها أيضاً قصيدته الذائعة الصيت « غريب على الخليج » التي تمثل الإحساس بالغربة والشوق العارم للعودة إلى العراق:

الريح تصرخ بي: عراق

والموج يعُولُ لي: عراق، عراق،

ليس سوى عراق

البحر أوسع ما يكون، وأنت أبعد ما تكون.

والبحر دونك يا عراق

حتّى الظلام هناك أجمل، فهو يحتضن العراق.

وأفقت من هذه الذكريات لأتوجه و(أبو عدنان) لزيارته في المستشفى. وجو المستشفيات، كل المستشفيات ثقيل حزين. وأخذنا نبحث عنه بين المرضى، حتّى وجدناه وسط الزحام، جلداً على وضم، كومة من العظم، لا تزن إلاَّ القليل القليل، ولا تدرك أنها لإنسان ما زال حياً إلاّ من حركة العينين الزائغتين الحزينتين البائستين اللتين تنبئان بأن صاحبهما ينتظر مصيره المحتوم في أية لحظة. وجرى الحديث في جو مشحون بالحزن على شاعر قمة في شعرنا الحديث، لا تكاد تسمع الصوت منه إلاَّ همساً بعد جهد وعناء. وهل يمكن أن يدور الحديث في هذا الجو إلاّ عن حالته الصحية، وها هي أمامنا نراها ؟!

لقد أسعدنا أبو غيلان من الخليج إلى المحيط بقصائده التي هزت أدق مشاعرنا: غريب على الخليج، وأنشودة المطر، وحفار القبور، والمومس العمياء، فبم أسعدناه ؟ وماذا لقي من دنيانا غير الإهمال ؟ وخرجنا من هذه الزيارة بحزن يسكننا، أقلقني أياماً وليالي، حتّى أنني لم أجد الشجاعة الكافية لزيارته ثانيةً.

ثمّ علمت أنه قد غادر المستشفى عائداً إلى عائلته في البصرة، وبعد أيام وصلت إليَّ رسالة منه، يشكرنا فيها على الزيارة، ومع رسالته قصيدة يرجو أن تنشر في المجلة « وراجياً أن ترسلوا إليّ قيمة المكافأة لأستعين بها على شراء الدواء اللازم »!! بدر شاكر السيّاب لا يجد ثمن الدواء ! إذن هذا هو السر وراء حضوره إلى الكويت، فالعلاج فيها مجاني، والرعاية الطبية جيدة. وسارعت بإرسال المكافأة إليه، على أن تظهر القصيدة في أول عدد لم يكتمل صف حروفه بعد، وكان من

عادة مجلة « العربي » أن يكون لها في المطبعة عددان مكتملا الإخراج يوم صدور العدد الجديد إلى السوق. وبعد شهر أو أكثر قليلاً، وبعد صدور العدد الجديد من العربي بأيام، حمل البريد إلينا في « العربي » الرسالة المسجلة التي أرسلناها إلى بدر، وهي على حالها لم تفتح، وقد كتب على الغلاف: « المذكور قد توفي » !؟

وتأملت في الخط على المغلف، إنه خطه هو !

ترى لماذا رد الرسالة دون أن يفتحها ؟!

ولم أجد من تعليل سوى أنه لم يجد قصيدته، فظن، وهو الشاعر المفرط الحس المسكون بالهواجس، أن المجلة لا تعتزم نشر قصيدته، وأنها تجود عليه بهذا المبلغ مساعدة منها لتمكينه من شراء الدواء. ولم يطل غيابه في البصرة، إذ سرعان ما عاد إلى الكويت، لينزل في المستشفى نفسه، وليفارق الحياة في الساعة الثانية والدقيقة الخمسين من بعد ظهر الرابع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٦٤ م. رحم الله أبا غيلان، ولازال ثراه تبلله قطرات من أنشودة المطر.

مطر....

مطر....

مطر....

سيعشب العراق بالمطر

obeikandl.com